منزلة السنة النبوية الشريفة عند الإمام مالك في فكر جورج طرابيشي مقاربة تحليلية نقدية

بقلم

د/ الطيب زبيدة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ـ قسنطينة

faith_zou@yahoo.fr

المقدمة:

السنة النبوية عند الإمام مالك تشمل ما يعرف عند علماء الحديث بالمأثور، كما تشمل، أيضا، عمل أهل المدينة وإجماعهم وفتاوى الصحابة إلى جانب فتاوى كبار التابعين. وهو ما جعل بعض المفكرين الحداثيين، ومنهم المفكر السوري جورج طرابيشي، يرسم للإمام مالك صورة المفكر؛ الذي أرسى دعائم الفكر الحر والقول المبكر بتاريخية السنة النبوية، من خلال ما يراه تسوية من قبل الإمام لأحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) بأقوال البشر من الصحابة والتابعين، وإعطائها قوة التشريع والحضور بصورة تتجاوز أحيانا نصوص السنة ، مثل ما ورد عنه في القول بمجاوزة عمل أهل المدينة لخبر الآحاد.

إن هذه الصورة؛ هي التي يجري تغييبها في الفكر الإسلامي المعاصر، كما يرى طرابيشي، وهي التي ينبغي على المفكرين والنخب استرجاعها اليوم من أجل رسم عبور محترم نحو الحداثة؛ التي لا يصنعها إلا الفكر الحر ومجاوزة تقديس النصوص الدينية، ولا تبعثها إلا النماذج الحية في التراث، والتي يمثلها الإمام مالك بامتياز، مثل ما يرى طرابيشي، **فإلى أي مدى يمكن القول أن مقاربة طرابيشي تعكس حقيقة منزلة السنة عند مالك؟** تلك هي الإشكالية التي سأحاول الإجابة عنها، وتجلية قراءة المفكر

جورج طرابيشي بخصوص منزلة السنة عند الإمام مالك، ومن ثمة النظر في مدى قابلية التفكير الموضوعي؛ الملتحم بالمرجعية الإسلامية وأدواتها المعرفية الذاتية لها(أي للقراءة). ولذلك اخترت أن تحمل المداخلة عنوان: **منزلة السنة النبوية الشريفة عند الإمام مالك في فكر جورج طرابيشي: مقاربة تحليلية نقدية.** والإجابة على تلك الإشكالية ستكون من خلال العناصر التالية:

أولا: التعريف بجورج طرابيشي واهتماماته الفكرية:

ثانيا: منزلة السنة عند الإمام مالك:

ثالثا: قراءة جورج طرابيشي لمنزلة السنة عند الإمام مالك:

رابعا: رؤية نقدية.

الخاتمة

تمهيد:

التعرف على قراءة المفكر السوري جورج طرابيشي للسنة النبوية، كما هي عند الإمام مالك، ينبغي أن يمر عبر عناصر تكفل للقارئ فهما متيسرا للموضوع. وتلك العناصر تتمثل في التعرف على شخصيته واهتماماته الفكرية؛ التي يجيء في مقدمتها هنا اهتمامه بالسنة. ثم بيان منزلة السنة عند الإمام مالك كما هي في تراث المذهب؛ بغرض بيان قراءة طرابيشي للسنة عنده (أي عند الإمام مالك) وهي لب الموضوع، ومن ثمة الذهاب إلى محاولة نقدية لقراءة طرابيشي للسنة عند الإمام مالك.

أولا: التعريف بجورج طرابيشي:

جورج طرابيشي مفكر وكاتب وناقد ومترجم عربي سوري. من مواليد مدينة حلب عام 1939، يحمل الإجازة باللغة العربية والماجستير بالتربية من جامعة دمشق. عمل مديراً لإذاعة دمشق (1963-1964)، ورئيساً لتحرير مجلة دراسات

عربية (1972-1984)، ومحرراً رئيسياً لمجلة الوحدة (1984-1989). أقام فترة في لبنان، ولكنه غادره بعد اندلاع الحرب الأهلية إلى فرنسا - التي استقر بها حتى وفاته متفرغاً للكتابة والتأليف إلى أن توفي في 2016.[1] وهو يصنف نفسه من المثقفين الذين يلعبون أدوارا تنويرية ويقدمون أفكارا ورؤى جديدة للمجتمعات العربية.[2] ويعتبره بعض الدارسين واحدا من أبرز الوجوه الفكرية؛ التي كانت لها بصمة واضحة في محاورة الفكر الغربي؛ سواء من جهة تقريبه للقارئ العربي من خلال الترجمة والتأصيل أو من جهة استعمال أدواته في تحليل ومقاربة جوانب متعددة من الثقافة العربية الإسلامية.[3] ومن ثمة كان رحيله، كما يرى هؤلاء، يعني خلو الساحة الفكرية العربية من العقلانيين.[4]

وقد تميز مساره الفكري بمرحلتين: كانت المرحلة الأولى؛ انخراط كلي في الأيديولوجيات الغربية الحديثة من ماركسية إلى قومية. في حين تميزت المرحلة الثانية بعودة قوية إلى التراث؛ عبَّر عنها بقوله: "... شعرت بالتوجه نحو التراث العربي الإسلامي باعتباره مؤسسا كبيرا لا نستطيع نحن الأبناء إنكاره. بل لا نستطيع إلا أن نعاود الانطلاق منه لكي نبني حياتنا الجديدة."[5] لأننا، كما يقول،"... أمة تراثية، ملبوسون بالتراث من قمة رأسنا إلى أخمص قدمنا، وبالتالي لا نستطيع أن ندخل

[1] /https://www.goodreads.com/author/show/2967319

[2] http://www.aljazeera.net/news/cultureandart/2016/11/21/ 2

[3]/ المحفوظ فضيلي، طرابيشي وصفدي وشبل.. عام الفكر الحزين، تاريخ الإدخال: 21/ 11/ 2016.
http://www.aljazet/ntureandart/2016/11/21

[4]/ سوسن الأبطح، جورج طرابيشي يرحل تاركًا ساحة الفكر شبه خلاء من العقلانيين، جريدة الشرق الأوسط، تاريخ الإدخال: 8/ مارس/ 2016. https://aawsat.com/home/article/

[5]/ الطيب ولد لعروسي، أثير تنشر أطول حوار مع الراحل جورج طرابيشي، السبت 10مارس 2016
http://www.atheer.om/archives/26704

الحداثة عراة من هذه النصوص فهي مؤسسة لكل ما فينا."[1] ولذلك هو يدعو إلى القطيعة المعرفية التي تتم على مستوى النصوص وفهمها وإعادة تأويلها، وليس إهمالها.[2].

وفي هذا السياق؛ تمحورت جل اهتماماته الفكرية حول إعادة قراءة التراث الإسلامي، والمراهنة على نقد نصوصه؛ بوصفه المنهج الناجع الذي سيعيد للعقل اعتباره في كشف المسكوت عنه واللامفكر فيه. وفي سبيل ذلك وظف طرابيشي العديد من المناهج الغربية؛ فاتخذ من الصورة التحليلية المستقاة من علم النفس الفرويدي أرضية أولية للتفسيرات النفسية للعقائد والقيم الثقافية الإسلامية. كما اعتمد التأويل التاريخي والاجتماعي للنصوص لإثبات تاريخيتها؛ فـ" ... حتى ندخل الحداثة لا يجب علينا أن ننقطع من النصوص، ولكن يجب علينا إعادة تأويلها، وأن نربط النصوص بتاريخها وسياقها، ونفهمها على ضوء حاجاتنا نحن لا كما فهمها الأقدمون على ضوء حاجاتهم هم."[3][4] هي العودة التي يفسرها بغير ما يذهب إليه هو في عودته إلى التراث بما يسميه "العصاب الجماعي" والذي يعني به ما أصاب المثقف العربي عقب هزيمة 67؛ حيث ظهر انقلاب وردة كبيرة عن الكثير من القيم والأفكار التي تربى عليها أجيال على مدى عشرين أو ثلاثين سنة، وتمت الهجرة إلى التراث

[1]/ جورج طرابيشي، العلمانية مطلب إسلامي،حوار: هادي يحمد، https://archive.islamonline.net/?p=6319

[2]/ أنظر: المرجع نفسه

[3]/ المرجع نفسه.

[4]/ ويرى الباحث السوري عبد الرزاق عيد أن نقد نقد العقل العربي لطرابيشي كان مشروعا فكريا كبيرا إلى جانب موسوعة أحمد أمين «فجر وضحى وظهر الإسلام»، وموسوعة المفكر المغربي محمد عابد الجابري «نقد العقل العربي»." [http://www.arabphilosophers.com/]

والعودة إلى الماضي.[1] وقد ضمَّن مؤلفاته التي تجاوزت 200 مؤلف فكرا ونقدا وترجمة تلك الأفكار والرؤى. ومنها:

المثقفون العرب والتراث :التحليل النفسي لعصاب جماعي، 1991.

مذبحة التراث في الثقافة العربية المعاصرة، 1993.

نظرية العقل العربي :نقد نقد العقل العربي (ج1)، 1996.

إشكاليات العقل العربي : نقد نقد العقل العربي (ج2)، 1998.

مصائر الفلسفة بين المسيحية والإسلام، 1998.

من النهضة إلى الردّة: تمزقات الثقافة العربية في عصر العولمة، 2000.

وحدة العقل العربي : نقد نقد العقل العربي (ج3)، 2002.

العقل المستقيل في الإسلام : نقد نقد العقل العربي(ج4)، 2004.

هرطقات 1: عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية، 2006.

المعجزة أو سبات العقل في الإسلام ، 2008.

هرطقات 2 :العلمانية كإشكالية إسلامية- إسلامية، 2008.

من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث... النشأة المستأنفة، 2010.

وقد كانت السنة ومكانتها في الفكر الإسلامي؛ من بين الموضوعات التي تبرز في قراءة طرابيشي للتراث الإسلامي، وهو ما سنعرض له في العنصر التالي.

[1]/ أنظر كتابه: المثقفون العرب والتراث :التحليل النفسي لعصاب جماعي.

السنة في القرآن عند جورج طرابيشي:

في البدء ينبغي الإشارة إلى أن جورج طرابيشي، لم يكن أول من حاول مقاربة السنة من موقع المفكر الحداثي والتنويري؛ فقد سبقه إلى ذلك بعض المفكرين، بل والعلماء المحسوبين على الفكر الإسلامي. ومنهم الشيخ علي عبد الرازق؛ الذي تحدث عن الرسالة والنبوة والملك في كتابه "الإسلام وأصول الحكم"؛ وخرج بما يفيد أن السنة هي مجموعة من قوانين واجتهادات ذات طابع مدني، وليست أحكاما دينية ملزمة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم، كما يرى، هو رسول وليس ملك.[1]

وإن كان علي عبد الرازق بقي في تحليله مستظلا بالدليل النصي من القرآن والسنة ومن أقوال العلماء، على غير ما تذهب إليه دراسات وأبحاث محمد أركون مثلا الذي يعتبر السنة مجرد خطاب؛ هو وليد لحظة تاريخية وليس لها طابع الديمومة.[2] وتدوينها كان تكريسا لأرثوذوكسية ظلت تشل مقدرات وإمكانات المسلمين ولا زالت.[3]

كما يرى عبد المجيد الشرفي في قراءته للسنة من خلال كتاب "أضواء على السنة المحمدية" لمحمود أبي رية؛ إمكانية أن يستثمر الحداثيون في مقالة أبي رية في إنتاج خطاب حداثي بخصوص السنة؛" ... لأنه لا سبيل البتة في إلى الثقة في الأحاديث النبوية التي وصلتنا نظرا للظروف الحافة بروايتها ثم تدوينها."[4]. فكيف كانت قراءة طرابيشي للسنة ؟

---

[1]/ أنظر: علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، دط، بيروت، دار الكتاب اللبناني، القاهرة دار الكتاب المصري، 2012، الباب الثاني والثالث.

[2]/ أنظر: محمد أركون، الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد، ترجمة:هاشم صالح، ط3، بيروت، دار الساقي، 1998، ص 102

[3]/ المرجع نفسه، ص246

[4]/ عبد المجيد الشرفي، الإسلام والحداثة، ط3، تونس، دار الجنوب، 1998ص 71-75.

يجزم طرابيشي أن لا جهة يمكنها أن تمتلك المعرفة الكاملة بالوظيفة النبوية وطبيعتها وحدودها وأهدافها سوى القرآن(الكريم). ولذلك نجده يذهب، رأسا، إلى فحصه(أي القرآن) بغرض بيان ما يراه المنزلة الحقيقية للسنة فيه. وهو ما يعرضه، على وجه الخصوص، في منجزه الفكري الذي حمل عنوان " من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث". وفيه يحاول كشف ما يسميه " اللامفكر فيه في السنة". فما الذي يريد طرابيشي كشفه؟ ولماذا؟

إن القارئ للمنجز المذكور؛ يرتسم أمامه، بحسب طرابيشي، عنوانا كبيرا يجري تغييبه وعدم التفكير فيه، وهو الدور الحقيقي للنبي (صلى الله عليه وسلم) كما هو في القرآن، وفي المقابل تضخيم السنة على حساب القرآن وتراجع النص القرآني لمصلحة الحديث. وهو ما سنحاول بيانه.

1/ تغييب الدور الحقيقي للنبي (صلى الله عليه وسلم):

يرى طرابيشي أن الفكر الإسلامي؛ بمختلف مفاصله سواء كان تفسيرا أو حديثا أو فقها أو أصول فقه عمل على تغييب الدور الحقيقي للنبي (صلى الله عليه وسلم) وهو بذلك الصنيع يخالف ما ورد في القرآن(الكريم) والمتمثل في:

-كون النبي (صلى الله عليه وسلم) هو ناقل للوحي ومبلغ عن الله ليس إلا. وبتعبير طرابيشي فإنه (صلى الله عليه وسلم) مبلغ مشرع له عن الشارع (تعالى) ، وهو يقوم مقام المفعولية وليس الفاعلية. ويستدل على ذلك بآيات كثيرة من القرآن تؤكد أن مهمة النبي (صلى الله عليه وسلم) هي البلاغ المبين فقط. وهي قوله تعالى:" يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك." **المائدة/67** وقوله:" إن أتبع إلا ما يوحى إلي." **الأحقاف/ 08** وقوله:" وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا(73) ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا(74) إذا

لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا(75)" **الإسراء/ 73-75** وغير ذلك من الآيات.

– كون النبي صلى الله عليه وسلم "... مكفوف اليد من الناحية التشريعية ومعطل عن الإرادة الإلهية منهي عن المبادرة ومطالب بالخضوع التام تحت طائلة العقاب، وهو في كل مرة يواجه بالتهديد إذا حاول أن يتصرف بمفرده." ويسوق جملة من الآيات للتدليل بها على صحة ما يذهب إليه، ومن ذلك قوله تعالى: " أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم(8) قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين.(9)" **الأحقاف/ 08-09.** وقوله تعالى:"ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا." **الإسراء/ 86.** وقوله في سورة الإسراء أيضا: "وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا(73) ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا(74) إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا(75)" **الإسراء/ 73-75.** وقوله: " ولو تقول علينا بعض الأقاويل(44) لأخذنا منه باليمين(45) ثم لقطعنا منه الوتين(46) فما منكم من أحد عنه حاجزين.(47)." **الحاقة/ 44-47**

– إنه يواجَه بالتحذير من استعجال الوحي، ويطالب في كل مرة طرح فيها أمر جديد أو وقائع تستحق التدخل بانتظار الوحي والأدلة على ذلك قوله تعالى:" ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه."**طه/ 114** وقوله تعالى: " ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله." **الكهف/23.**

– إنه في أغلب الأوقات، وتحت طائلة التحذيرات المتكررة، كان يعلق الأحكام ولا يبادر إلى الاجتهاد والإجابة حتى نزول الوحي؛ ويستدل على ذلك بصيغ يسألونك عن... قل التي تكثر في القرآن؛ ومنها: مثل قوله تعالى: " يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج." **البقرة/ 189** وقوله:" يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم." البقرة/ 215 وقوله:" يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله..." البقرة/ 217 وغيرها من الآيات التي تبدأ بقوله تعالى:"يسألونك... قل" وهي آيات يعلق عليها طرابيشي بالقول: "... تكف يد الرسول عن التشريع حتى في أبسط الأمور، وتقيده تقييدا مطلقا بسلطة الوحي، ولا تترك له من مبادرة إلا الامتثال لما يوحى إليه."

–إنه (صلى الله عليه وسلم) كثيرا ما كان يتعرض للوم والعتاب الشديدين، ويتم ردعه بشدة بسبب مواقف اتخذها: مثل ما جاء في سورة عبس؛ وهي قوله تعالى:" عبس وتولى(1) أن جاءه الأعمى(2) وما يدريك لعله يتزكى(3) أو يذكر فتنفعه الذكرى(4) أما من استغنى(5) فأنت له تصدى(6)" **عبس/ 1–6** وقوله تعالى:" عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين." **التوبة/43.**

– إنه (صلى الله عليه وسلم) كان يتم نهيه حتى على الأعمال التي كان يهم بعملها، ولم يعملها؛ " أي يتم نهيه بمجرد أن ينوي أنه سيفعل مثل ما يظهره قوله تعالى:" وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين."**النحل/ 126**

– إنه (صلى الله عليه وسلم) يُخَطَّأ ويتم توبيخه ومساءلته؛ بخصوص مبادرات كان يقوم بها دون الرجوع إلى الوحي مثل مسألة الأسرى في غزوة بدر؛ التي قال فيها: "ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد

الآخرة والله عزيز حكيم." **الأنفال/ 67** [1]

ليخلص طرابيشي إلى القول "...أن الرسول بشر وهذه قيمة كبرى للإسلام وهي بشرية الرسول، بخلاف الأديان الأخرى التي ألهت النبوة، كما حدث في المسيحية عندما جعل من المسيح إلها، فإذن في القرآن نفسه هناك ثنائية كبيرة بين الله والرسول البشر، وبين المرسل الذي هو إله والمرسل إليه الذي هو بشر، وهذا تمييز كبير موجود.[2]".

إن ما يعرضه طرابيشي يدل، بحسب قراءته، على أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر، وأن كل ما كان يقوله أو يفعله أو يقرره مما جرى تقريره في أصول الفقه هو محض كلام بشري، ولا علاقة له بالوحي الإلهي وليس له من صفات المقدس شيء. ولذلك وجدناه يبحث عن جواب لسؤال: لماذا جرى ويجري تقديس السنة، وتضخيم دورها بالرغم من أن القرآن يلح على بشرية النبي (صلى الله عليه وسلم) ويحدد دوره؟

2/ تضخيم دور النبي (صلى الله عليه وسلم):

يؤكد طرابيشي على أن الإسلام يتمحور حول مفهوم "... الرسالة – الكتاب – التي يؤديها رسول بشر لا يعلم الغيب ولا يأتي المعجزات. ورغم توفر حديثين أو ثلاثة حول بشرية الرسول، فإن المنطلق المباطن لإنتاج الحديث ولتدوين السنة المحمدية (أو العلوية) هو منطق تقديسي، بل تأليهي. ورغم الضوابط الفقهية التي نصت على الأولوية التشريعية للقرآن، فقد رفعت السنة إلى المرتبة الأولى عينها، بل

[1]/ أنظر: جورج طرابيشي، من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث- النشأة المستأنفة-، ط1، بيروت، دار الساقي، ورابطة العقلانيين العرب، 2010، فصل: الله والرسول... الشارع والمشرع له ، ص7-66

[2]/ جورج طرابيشي، العلمانية مطلب إسلامي،حوار: هادي يحمد،
https://archive.islamonline.net/?p=6319

اعتبرت، تماما كالقرآن، وحيا إلهيا."[1] ويستشهد بما يقول الغزالي في المستصفى: "إن الكل من عند الله"؛ حيث يقول:"...إن كلام الله واحد وليس بكلامين، أحدهما في قرآن والآخر ليس بقرآن". ويقول: "إن الاختلاف بينهما بالعبارة فقط، فربما عبر الله عن كلامه بلفظ منظوم يأمرنا بتلاوته فيسمى قرآنا، وربما عبر بلفظ غير منظوم فيسمى سنة، والكل مسموع من الله". ومن ثم فقد أجاز الغزالي، ومعه مدرسة بكاملها، نسخ القرآن بالسنة، رغم ما بين الاثنين، عند كثرة من الفقهاء والأصوليين، من فارق في القوة التشريعية." [2] ما يعني عند طرابيشي أن مباحث أصول الفقه والحديث كان لها دورا كبيرا في تكريس وترسيخ القول بقداسة السنة، وهو ما يناقض ما جاء في القرآن بخصوص المسألة. وكانت النتيجة أنه تم السطو على واحدية مصدرية النص القرآني وإلحاق السنة بالقرآن في التقديس، بل إنه تم تضخيمها وتقديسها على حساب القرآن نفسه؛ ومن ثمة كان ما يعتبره طرابيشي "انتقال من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث."

ومع ذلك فهو يرى أن ثمة عوامل أخرى تربض وراء عملية التضخيم، والموضوع لا يزال في حاجة إلى "... "حفريات" تتوسل بوسائل المعرفة الحديثة وتذهب بجرأة إلى جذور ظاهرة تضخم الحديث، [لأننا] سنلاحظ من جانبنا أن هذا التضخم شكل في واقع الأمر ضربا من الإزاحة للمعقولية القرآنية أخرجها عن مسارها البديء."[3] ولا شك أن طرابيشي يلمح إلى العامل السياسي الذي يرد إليه أغلب الحداثيين نشأة العلوم وتدوينها في التراث الإسلامي؛ وهو ما يسمى «... الدّمج بين المعرفة والسّلطة كوحدة تحليل في فهم للتراث المعرفي الإسلامي، أي أن ثمة رهانات سياسية تسكن

[1]/ http://www.arabphilosophers.com/Arabic/aphilosophers/ -

[2]/ جورج طرابيشي، نقد نقد العقل العربي: إشكاليات العقل العربي، ط1، بيروت، دار الساقي،1998، ص67

[3]/ المصدر نفسه، ص66.

العقائد الإيمانية." [1].

ليخلص هنا أيضا إلى القول بأنه "...في القرآن التشريع لله وحده، وحتى الرسول لا يملك حق التشريع، واستندت إلى العشرات من الآيات التي تكف يد الرسول عن كل شيء، إلا أن يوحى إليه، فإذا ما أوحي إليه فقد تكلم الله، وأما إذا ما تكلم الرسول فهو قد يخطئ وقد ينبهه القرآن."[2]

إن كشف تاريخية السنة وبشرية نصوصها؛ على النحو الذي (أثبته) طرابيشي يعني إزاحة المقدس، وخلق هامش من الحرية للممارسة العقلانية والنقدية؛ فبشرية النص تعني امتلاك العقل حرية النقد وإعادة القراءة، في حين أن تقديسه، كما يرى طرابيشي وغيره، هو أحد معوقات النقد، والمعروف أنه كلما اتسعت مساحة المقدس ضاقت مساحة النقد.

وأما كشف ما لحق بها من تضخيم؛ فإنه يعني كشف ما أعطي لها من حق في التشريع بعيدا عن الحدود التي رسمها القرآن. وهذا بالنسبة لطرابيشي يعني خلق مساحة كبيرة للحرية والاستقلالية التشريعية؛ والانفلات من الأحكام والقوانين التي ظلت توجه الحياة الإسلامية، وإعطاء العقل الإسلامي حقه في التشريع؛ فالسنة في نهاية المطاف ليس لصاحبها من الأمر شيء كما ثبت ذلك في القرآن، وما نالته من مكانة في التشريع هو بسبب عوامل ما تزال تحتاج إلى بحث.

وهكذا تكشف قراءة طرابيشي لمنزلة السنة في القرآن ما يرى أنها عناصر؛ جرى ويجري إخفاؤها وتغييبها في الفكر والإسلامي. وتلك العناصر، وهي الحرية

[1]/ عبد الرزاق بلعقروز، مساءلة النقدية لأنماط العقلانية لدى أركون والجابري- نموذج طه عبد الرحمن- مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة سطيف2، ع16، ديسمبر2012، ص11.
[2]/ موقع الإسلام أون لاين يوليو 2008

والاستقلالية والعقلانية؛ هي من أهم المتطلبات التي لا يمكن العبور إلى الحداثة إلا بامتلاكها من أجل تغيير الواقع العربي والثورة عليه، كما هو معروف في الخطاب الحداثي العربي. ولذلك كان كتاب " من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث –النشأة المستأنفة– " إلى جانب كتبه الأخرى تحريض بالمعنى الايجابي للكلمة على الثورة على القوالب الدينية الجامدة المنتظرة للمعجزات لتطوير وتثوير الواقع. "[1]

وإذا كان طرابيشي؛ قد وجد في القرآن ما يؤيد مقصده في خلق متطلبات الحداثة، فإنه طفق في نفس السياق يبحث عما يعضد موقفه ونظرته إلى السنة؛ من خلال فحص منزلتها عند كبار العلماء والمحدثين، وعلى رأسهم الإمام مالك؛ انطلاقا من استراتيجيته القائمة على الغوص إلى الداخل الذي يتحصن به من يسميهم دعاة القدامة في مواجهة الحداثة؛ لأن المواجهة مع أعداء الحداثة لا تكون إلا من خلال الرجوع إلى نفس المواقع التراثية التي يدّعون أنهم يتحصنون بها. [2] فهل وجد ضالته عند الإمام مالك؟

ثانيا: منزلة السنة عند الإمام مالك:

قبل عرض منزلة السنة عند الإمام مالك، كما يراها طرابيشي؛ ينبغي بيان منزلة السنة عند الإمام مالك أولا؛ إذ السنة عند الإمام مالك تميزها عناصر؛ كانت محل اهتمام وتركيز من قبل جورج طرابيشي؛ وهي التي سأكتفي بعرضها من دون الغوص في عرض أراء وتفاصيل، خاصة بمنزلة السنة عند مالك مما يعرفه المختصون من دارسي علوم الحديث وعلم الفقه وأصوله. وتتمثل تلك العناصر فيما يلي:

[1]/ أنغير بوبكر، جورج طرابيشي: المفكر الحداثي المتنور...فولتير الفكر الإسلامي، الحوار المتمدن، تاريخ الإدخال: 2017/06/08. http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=

[2]/ حوار في جريدة الشرق الأوسط 23 يناير 2008، ع10648، http://archive.aawsat.com/

1/ مفهوم السنة: يتسع مفهوم السنة عند مالك؛ فالسنة عنده تشمل ما يعرف عند علماء الحديث بالمأثور، وهي: عمل أهل المدينة وفتوى الصحابي وفتوى التابعي.

-عمل أهل المدينة: إن ما يدل على أن عمل أهل المدينة هو من السنة؛ هو ما نقل عن الإمام في رسالته إلى الليث بن سعد التي يصدرها بقوله :"... فإنما الناس تبع لأهل المدينة ، إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن وأحل الحلال وحرم الحرام..."[1] وما ينقله القاضي عياض عن زيد بن ثابت قوله: " إذا رأيت أهل المدينة على شيء فاعلم أنه السنة."[2] وبالرغم من أن عديد الفقهاء والأصوليين، وحتى المتكلمين فهموا من قول مالك بعمل أهل المدينة أنه قصر الإجماع عليهم بدل إجماع الأمة. إلا أنه، وبحسب ما ذهب إليه الغزالي، أن ما أراده مالك بعمل أهل المدينة هو غير إجماع الأمة؛ حيث قال:" قال مالك: "... الحجة في إجماع أهل المدينة فقط... ثم قال: وربما احتجوا بثناء رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة وعلى أهلها ، وذلك يدل على فضيلتهم وكثرة ثوابهم لسكناهم المدينة ولا يدل على تخصيص الإجماع بهم."[3] وفضلهم وكثرة ثوابهم الذي ذُكر "... هي حجة مالك رضي الله عنه بعمل أهل المدينة، وإنه كان في بعض الأحيان يقدم عمل أهل المدينة على خبر الآحاد لهذا المعنى الذي ذكره؛ وهو أن ذلك الرأي المشهور المعمول به في المدينة هو سنة مشهورة مأثورة والسنة المشهورة مقدمة على خبر الآحاد."[4]

---

[1]/ القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ط2، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1983،ج1، ص42-43.

[2]/ المرجع نفسه، ج1، ص38.

[3]/ أبو حامد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، دراسة وتحقيق: حمزة بن زهير حافظ، دط، المملكة السعودية، شركة المدينة المنورة للطباعة،دت،ج2 ، ص 348-350

[4]/ محمد أبو زهرة، مالك: حياته وعصره –آراؤه وفقهه، دط، القاهرة، مطبعة الاعتماد، دت، ص303

-فتاوى الصحابة: من أمثال عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر عن مولاه نافع وغيرهم.[1]. يقول أبو زهرة:" ...إن العلم الذي تخرج فيه(أي الإمام مالك) وترعرع وشدا وبنى عليه واستنبط على أساسه وسار على منهاجه كان فيه مع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أقضية الصحابة وفتاويهم."[2] "... فكان الموطأ مشتملا على فتاوى الصحابة بجوار أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فالسنة عند مالك هي فيما كان عليه الصحابة."[3] "... ولقد كان مالك يكثر من الأخذ بفتاوى الصحابة، ويعتبر فتاواهم من السنة."[4]

-فتوى التابعي: ومن السنة عند مالك فتاوى كبار التابعين؛كسعيد بن المسيب، ومحمد بن شهاب الزهري، ونافع، ومن في طبقتهم ومرتبتهم العلمية.[5] والأمر ، كما يوضحه محمد أبو زهرة، ليس من قبيل التقليد والاتباع؛ فمالك "... لم يعتبر أقوال التابعي من السنة، بوصف كونه تابعي، كأقوال الصحابة الذين لازموا الرسول صلى الله عليه وسلم، واعتبارها من السنة بوصف كونهم صحابة لازموا الرسول، وشاهدوا مواقع التنزيل وأدواره ولم يأخذ بعض أقوالهم (التابعين) تقليدا واتباعا، بل لأنه في دراسته انتهى إلى موافقتها ولم يجد ما ينقضها."[6]

2/ موقفه من تعارض السنة مع ظاهر القرآن: يقول أبو زهرة: "... لقد وجدناه في بعض الأحوال يقدم ظاهر القرآن على السنة، وفي بعض الأحيان يجعل السنة حاكمة

---

[1]/ http://www.habous.gov.ma/2012-01-26- أصول المذهب المالكي، تاريخ الإدخال: السبت 01/ فيفري/ 2014.

[2]/ محمد أبو زهرة، المرجع نفسه، ص 279

[3]/ المرجع نفسه ص280

[4]/ المرجع نفسه، ص282

[5]/ أصول المذهب المالكي، المرجع نفسه.

[6]/ محمد أبو زهرة، المرجع نفسه ، ص290

على ظاهر القرآن."[1] والسنة تكون حاكمة على ظاهر القرآن بناء على مراتب السنة الثلاث المعروفة، وهي: أنها إما أنها مقررة لأحكام القرآن أو موضحة لمراده كأن تقيد مطلقا أو تخصص عاما أو تبين مجملا.

وحينئذ فالسنة حاكمة على ظاهر القرآن عند مالك؛ في حال ما إذا أريد بها تخصيص عام أو تقييد مطلق أو بيان مجمل، وهي لا تكون حاكمة عليه إلا إذا عضدها إجماع الأمة أو إجماع أهل المدينة أو قياس "... فما لم تعاضد السنة بإجماع أو عمل لأهل المدينة أو قياس فإن النص يسير على ظاهره."[2] وهو ما جعله يرد أخبار الآحاد التي عارضت ظاهر النص؛ كما حدث معه في حديث غسل الإناء سبعا إذا ولغ فيه الكلب، واعتباره نجسا عندما رده على اعتبار طهارة صيده في قوله تعالى: " وما علمتم من الجوارح مكلبين." **المائدة/ 04.**

3/ شروط الرواية عند الإمام مالك: والمراد أن مالكا كان يتشدد في شروط رواية الحديث، حتى سمى بعض المحدثين سلسلة روايته بالسلسلة الذهبية؛ فقد نقل عنه أنه كان يقول:" لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ من سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس، وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به."[3] فشروط الرواية عنده، بناء على ذلك، هي: العدالة؛ فلا تقبل رواية السفيه. والسلامة من البدع والأهواء؛ فلا تقبل رواية صاحب بدعة قد تدفعه بدعته إلى الكذب على رسول الله من أجل

[1] المرجع نفسه، ص260

[2] / المرجع السابق، ص261.

[3] / المرجع نفسه، 264-265

الانتصار لها. والضبط والفهم؛ أي أن يكون الراوي فاهما لما يحمل وعارفا بمعاني الحديث ومراميه؛ ولذلك وجدناه " ...رد كثيرا من أحاديث معاصريه مهما تكن عدالتهم ما داموا لم يكونوا من أهل هذا الشأن."[1] وهذا ما يبرر قبوله وأخذه بالحديث المرسل الذي يسقط الصحابي في سنده؛ يقول أبو زهرة: " لماذا كان مالك يقبل المرسلات ويفتي على أساسها؟ والجواب عن ذلك أنه كان يتشدد في البحث عن الرجل الذي يكون ثقة. فإذا كان مستوفيا لكل شروطه اطمأن إليه وقبل منه سنده."[2]

4/اعتماده على المصادر العقلية إلى جانب المصادر النقلية: فمصادر المذهب المالكي كثيرة ومتنوعة؛ وهي تجمع بين النقل والعقل. وقد ذكر القرافي مجموع المصادر في كتابه "شرح تنقيح الفصول؛ فقال: "... إن أصول المذهب هي القرآن والسنة والإجماع وإجماع أهل المدينة والقياس وقول الصحابي والمصلحة المرسلة والعرف والعادات وسد الذرائع والاستصحاب والاستحسان." [3] ؛ حيث تظهر الأصول العقلية المتمثلة في القياس والمصلحة والاستحسان والاستصحاب وغيرها... ما يدل على أن"... مالكا (رضي الله عنه) لم يكن في اعتماده على الرأي مقلا كما توهم عبارات الذين كتبوا في تاريخ الفقه الإسلامي."[4] **فالقياس**؛ هو أول المصادر العقلية التي اعتمدت عليها جميع المذاهب، وهو في الاصطلاح "... حمل معلوم، على معلوم، لمساواته له في علة حكمه، عند الحامل."[5]

---

[1]/ المرجع نفسه، ص 266.

[2]/المرجع نفسه، ص 268

[3]/ القرافي، شرح تنقيح الفصول، تح: طه عبد الرؤوف سعد، ط1، دار الفكر، 1973م، ص 445

[4]/ محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره، مرجع سابق، ص 269.

[5]/ تاج الدين بن علي السبكي، جمع الجوامع في أصول الفقه، ط2، علق عليه ووضع حواشيه: عبد المنعم خليل إبراهيم، بيروت، دار الكتب العلمية، 2002، ص80.

وليس للمالكية من تميز يذكر بخصوص القياس سوى توسع مالك وأصحابه فيه؛ حيث لم يحصروه في القياس على الأحكام المنصوص عليها؛ بل عدَّوه إلى القياس على ما ثبت منها بالقياس؛ فيقيسون الفروع على الفروع والمسائل المستنبطة بالقياس[1]؛ أي أنهم أجازوا القياس على حكم ثابت بالقياس، بخلاف أغلب الأصوليين الذين يشترطون أن يكون المقيس عليه نصا من الكتاب أو السنة.

– **الاستحسان:** وهو "الأخذ بأقوى الدليلين."[2] وجاء في تعريفه أيضا "الاستحسان هو إيثار ترك مقتضى الدليل على طريق الاستثناء والترخيص لمعارضة ما يعارض به في بعض مقتضياته، وقسمه أقساما أربعة، وهي: ترك الدليل للعرف، وتركه للإجماع ، وتركه للمصلحة، وتركه للتيسير، ورفع المشقة وإيثار التوسعة."[3] أي أنه طلب الأحسن للإتباع.

– **المصالح المرسلة:** هي من المصادر التي انفرد به الإمام مالك. يقول ابن العربي: "إنّ أصول الأحكام خمسة، أربعة متّفق عليها من الأمّة: الكتاب والسنّة والإجماع والنظر والاستنباط والاجتهاد والمصلحة، وهو الأصل الخامس انفرد به مالك دونهم. ولقد وُفّق فيه من بينهم."[4] والرأي نفسه يقوله القرافي: "... المصلحة المرسلة، وهي عند مالك– رحمه الله– حجة." [5]

---

[1]/ أنظر: محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره، مرجع سابق، ص 315–316.

[2]/ ابن العربي، أحكام القرآن، نقلا عن: محمد أبو زهرة، مالك: حياته وعصره... مرجع سابق، ص 326.

[3]/ أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، دط، ضبط نصه وقدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه: مشهور بن حسن آل سلمان، دن م، ن، مكتبة التوحيد، دت، ج2، ص 320–321.

[4]/ ابن العربي، القبس، شرح موطّأ مالك بن أنس، تحقيق محمد عبد الله ولد كريم، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1992، ج2، ص658.

[5]/ أحمد بن إدريس القرافي، شرح تنقيح الفصول، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ط1، دار الفكر، 1973مص 350.

وهي مما لم يقم عليه دليل بالاعتبار أو الإلغاء ؛ إذ أن "... كل عمل فيه مصلحة لا ضرر فيها. أو كان النفع فيه أكبر من الضرر مطلوب من غير أن يحتاج إلى شاهد خاص لهذا النوع من النفع، وكل أمر فيه ضرر ولامصلحة فيه، أو إثمه أكبر من نفعه؛ فهو منهي عنه من غير أن يحتاج إلى نص خاص."[1]

– **العرف والعادة:** هي "... الأمر الذي اطمأنت إليه النفوس وعرفته، وتحقق في قراراتها وألفته، مستندة في ذلك إلى استحسان العقل ولم ينكره الذوق السليم في الجماعة. " وقيل إنها تحصل "... باستقرار الشيء في النفوس وقبول الأطباع له بالاستعمال الشائع المتكرر الصادر عن الميل والرغبة".[2] وهي أصل من أصول الاستنباط عند مالك، وقد انبنت عليه أحكام كثيرة في المذهب. ولذلك نبه الفقيه المالكي القرافي إلى العرف ووجوب اعتباره في الفتيا والحكم، ووجوب أن يكون المفتي عليما بعرف بلد المستفتي أو يسأل عنه.[3]

5/ امتزاج الرأي بالحديث: لما كان الرأي عند الإمام مالك، كما يشرحه أبو زهرة، هو إما قياس أو استحسان أو مصالح مرسلة أو سد ذرائع؛ مهما تعددت ضروبه واختلفت أسماؤه.[4] فإن دراسة السنة والحديث واستنباط الأحكام منها لا يكون عنده إلا على ضوء تلك المصادر؛ فهو يزنها بميزان المصالح والقياس والاستحسان وسد الذرائع وما إلى ذلك...ولذلك وجدناه يرد حديث ولوغ الكلب لمناقضته ظاهر الآية " وما علمتم من الجوارح مكلبين." **المائدة/ 04** ولأنه أحل صيده فلماذا ينجس

[1]/ محمد أبو زهرة، مالك حياته وعصره، مرجع سابق، ص 339.

[2]/ المرجع السابق، ص42

[3]/ أحمد بن إدريس القرافي، الفروق، ط1، قدم له وحققه وعلق عليه: عمر حسن القيام، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2003، ج 1، ص 138-141.

[4]/ أنظر: محمد أبو زهرة، مالك: حياته ...مرجع سابق، ص 271

ماؤه؟؟، وحديث جواز قضاء الصيام عن الأم ماتت وعليها دين الصيام لمعارضته لقطعي القرآن "لا تزر وازرة وزر أخرى." **الزمر/07** .كما رد حديث إكفاء القدور وتمريغ اللحم بالتراب لأنه إفساد وفيه مناقضة للمصلحة. ولم يأخذ بحديث صيام الست من شوال سدا للذرائع، ورد أحاديث تحديد عدد الرضعات اللاتي يحرمن فجعلها على الإطلاق لعموم الآية" وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم." **النساء/23** "... ولقد أحصى الشاطبي في الموافقات طائفة من المسائل أخذ فيها مالك بالقياس والمصلحة وترك خبر الآحاد لأنه رأى الأصول التي أخذ بها قطعية أو تعود إلى أصل قطعي والخبر الذي رده ظني." [1] وهذا ما جعل الإمام مالك "... من فقهاء الرأي الممتازين وهو بنفس المقدار والدرجة إمام في السنة. بل إنه يجعل تلك الإمامة أروع وأدق وأحكم لأن إمام السنة ليس هو الذي يتبع كل خبر يجيء إليه من غير تمحيص.[2]

6/ تقديم الرأي على خبر الآحاد: ولاعتبار الدليل العقلي سواء كان قياسا أو استصحابا أو مصلحة أو غير ذلك مما ذكر؛ نجد الإمام مالك يقدمه على خبر الآحاد؛ كما هو الحال في رد حديث غسل الإناء سبعا إذا ولغ فيه الكلب على أساس حل صيده، ورد حديث من مات وعليه صوم يصوم عنه وليه بناء على أنه لا تزر وازرة وزر أخرى. ورد خبر إكفاء القدور لما فيه من إفساد وكثير من ذلك. "... ولقد أحصى الشاطبي في الموافقات طائفة من المسائل أخذ فيها مالك بالقياس أو بالمصلحة وترك خبر الآحاد."[3]

تلك، إذن، هي أبرز النقاط التي جلبت اهتمام طرابيشي بخصوص منزلة السنة عند

---

[1]/ أنظر: الشاطبي ، الموافقات في أصول الشريعة، دط، تحقيق: عبد الله دراز، د، م، ن، ج3، ص 23-25.
[2]/ محمد أبو زهرة، مالك: حياته ... مرجع سابق، ص 276
[3]/ المرجع السابق ، ص271.

الإمام مالك؛ وهي: سعة مفهوم السنة واعتبار فتاوى الصحابة والتابعين وعمل أهل المدينة منها، ورده لبعض ظواهر الآيات وتقديمه للسنة على حساب القرآن، ورد أحاديث رواها معاصرون له، واعتماده على مصادر عقلية في أحكامه وفتاواه جاوزت المصادر النقلية.

ثالثا: قراءة جورج طرابيشي لمنزلة السنة عند الإمام مالك:

كيف يقرأ طرابيشي تلك النقاط في ضوء قراءته لما يراه منزلة للسنة في القرآن؟

سبق وذكرنا أن قراءة طرابيشي لمنزلة السنة في القرآن كشفت له أمرين، وهما: بشرية النبي (صلى الله عليه وسلم) التي يدل عليها أنه مبلغ وناقل للوحي لا غير. وتاريخية سنته وهي تحصيل حاصل لبشريته. فهل وجد طرابيشي عند الإمام مالك ما يعضد موقفه من السنة، ومؤداه بشرية صاحبها، وتاريخية أقواله وأفعاله وتقريراته؟

يرى طرابيشي أن الإمام مالك هو أبرز من يعبر عن حقيقة منزلة السنة من العلماء والمحدثين الذين حملوها، وأن مقاربته إزاءها هي الأقرب للنص القرآني، ورؤيته المتميزة بخصوص السنة من أكثر الرؤى الفكرية التي يرى طرابيشي أنها تحمل عناصر حداثية متقدمة؛ وهذا الفهم هو الذي جرى الانقلاب عليه مع مجيء الإمام الشافعي.[1] وعلى رأس تلك المقومات:

1/ الحرية النقدية ... السنة ومالك

الحرية كمفهوم تقوم عليه الحداثة يعني؛ امتلاك الحق الكامل في ممارسة النقد والمساءلة، وأن لا حدود لتلك الحرية إلا الحدود المنهجية التي يضعها العقل؛ فـ«... جوهر الحداثة هو حرية الذات في التجدد الذاتي والتحرر من كل استلاب أو تبعية إن

[1]/ أنظر: جورج طرابيشي، من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث... ، الفصل الرابع.

للتقاليد المعيقة للتقدم، أو للتقليد المعيق للإبداع»[1]. وعليه فإن مالكا، كما يرى طرابيشي، قد امتلك هامشا واسعا من الحرية بهذا المعنى الذي يحمل قراءة صارمة ونقدية لنصوص السنة. ومن ذلك:

-إن مالكا كان يرد أحاديث؛ فـ"...جرأة مالك [...] تعبر عن نفسها برد أحاديث مأثورة عن الرسول أو بمخالفة مضمونها والحكم بغير حكمها."[2] وهو يورد جملة من الأحاديث أفتى فيها بتقديم مصلحة أو قياس أو أو استحسان أو أي رأي كما هو معروف في مصادر المذهب المالكي. ومنها: أنه رد حديث ولوغ الكلب، ولم يأخذ بحديث صيام الست من شوال وفي قضاء صيام الفروع للأصول وغيرها كثير... كما سبق بيانه.

-إن مالكا " ... لم يستبعد احتمال وجود تناقض في النصوص سواء أكانت أحاديث نبوية أم آثارا صحابية[...] وطبيعي أن إبقاء باب التناقض في النصوص مفتوحا يمثل بحد ذاته هامشا من الحرية في التعاطي معها."[3] ويسوق ما يراه أمثلة في هذا الموضع، ومنها: نهيه صلى الله عليه وسلم عن صيام يوم السبت في قوله: (لا تصوموا يوم السبت إلا في فريضة وإن لم يجد أحدكم إلا عود كرم أو لحاء شجرة فليفطر عليه.)[4] وتعارضه مع ما قالته جويرية بنت الحارث أنه صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة فقال: صمت أمس؟ قالت: لا. قال:" فتريدين أن تصومي

---

[1] - أنور أبو طه، الحداثة وأزمة مؤسسات التعليم، ضمن كتاب: خطاب التجديد الإسلامي: الأزمنة والأسئلة، ط1، دمشق، دار الفكر، 2004،ص 92.

[2]/ جورج طرابيشي، من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث... مصدر سابق، ص 121

[3]/ المصدر نفسه، ص112.

[4]/ النسائي، السنن، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، ط1، القاهرة، مؤسسة الرسالة، 2001، ج3، ص210، رقم الحديث: 2776.

غدا؟" [1] وغيرها من الأحاديث التي تظهر جواز صيام السبت؛ ومن ثمة ترجيحه على النهي. ومنها حديث: (إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا.) [2] وتعارضه مع ما نقل عن ابن عمر أنه كان يقول : إن ناسا يقولون إذا قعدت على حاجتك فلا تستقبل القبلة ولا بيت المقدس. فقال عبد الله بن عمر: لقد ارتقيت يوما على ظهر بيت لنا فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على لبنتين مستقبلا بيت المقدس لحاجته." [3]

-كما أن التوقف وتعليق الأحكام "...يفتح بدوره هامشا إضافيا من الحرية، وإن من منظور العقل النصي دوما، فإبقاء باب التناقض مفتوحا حتى ولو مع تعليق الحكم يبقي مفتوحا أيضا باب خيار التأويل." [4] ؛ أي أن مالكا، من منظور طرابيشي، كان يعرض الأحاديث التي يظهر فيها (التناقض)، ويعلق الحكم فيها. ومع ذلك يجده طرابيشي يتدخل في بعض الأحيان؛ فيقول: "... وإزاء هذا التعارض وهذا التناقض في النصوص يبيح مالك لنفسه أحيانا أن يتدخل على عكس عادته في تعليق الحكم في مثل هذه الحالات."[5]

-المجاهرة بالمعارضة لمضمون بعض النصوص المنسوبة إلى الطبقة الأولى من الصحابة، فقد أعلن عن كراهته لفعلة عمر بن الخطاب في تقريد البعير في الإحرام؛ فبعد أن ساق عن ابن هدير أنه رأى عمر بن الخطاب يقرد بعيرا وهو محرم علق

---

[1]/ المرجع نفسه، ج3، ص207، رقم الحديث:2766.

[2]/ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري ، ط2، بيروت، دار إحياء التراث، ،كتاب الوضوء، باب : من تبرز بين...ج2، ص198.

[3]/ المرجع نفسه، ص 197-198.

[4]/ جورج طرابيشي، من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث...مصدر سابق، ص112-113.

[5]/ المصدر نفسه، ص115.

بقوله: " وأنا أكرهه"[1]. وهو "... لا يتردد في أن يفتي بعكس ما أفتى به ابن عباس، على ما لهذا الأخير من سلطة مكرسة في الفتوى."[2] وهو يريد ما ورد عن ابن عباس أن امرأة نذرت بأن تمشي إلى قباء؛ فماتت ولم تف. فأفتى ابن عباس أن تقضي ابنتها عنها. فقال مالك: "لا يمشي أحد عن أحد." [3]

إن ما سبق عرضه يظهر، بالنسبة لطرابيشي، نظرة متقدمة في ممارسة الحرية النقدية للنصوص التي حوَّل تقديسها المكلّف في الإسلام إلى ما يشبه الإنسان الآلي؛ الذي لا يتحرّك إلا بالنصوص التي تتحكم بشؤون حياته العامة والخاصة.

2/التاريخية ... السنة ومالك:

والمراد أن ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير هو من وحي بشريته، وليس من عند الله. ومن الطبيعي أن البشرية ترفع عنها صفة المقدس والإلهي. وهو ما يعني تاريخيتها التي تحد من إطلاقها وتعاليها؛ فالتاريخية هي المقولة المحورية في الفكر الحداثي، وتعني لا حقيقة يجب الوقوف عندها ومراعاتها، بل الحقيقة؛ هي ملاءمة المعرفة للواقع الذي يعيشه الإنسان الفرد/الجماعة، وبناء علي ذلك ترفض فلسفة الحداثة أن تكون هناك مرجعيات نهائية للمعرفة، وبالتالي فإن السنة لا تمثل مرجعية نهائية للمعرفة.

إن بشرية نصوص السنة يمر حتما، كما يبدو عند طرابيشي، عبر الممارسة النقدية التي توفرها الحرية. وهي الممارسة التي أظهرت أن نظرة مالك للسنة هي نظرة صادرة عن

---

[1]/ مالك بن أنس، الموطأ، مصدر سابق، كتاب الحج، باب: ما يجوز للمحرم أن يفعله، ج1، ص357-358

[2]/ المصدر نفسه، ص 120

[3]/ مالك بن أنس، الموطأ، مصدر سابق، كتاب: النذور والأيمان، باب: ما يجب في النذور من المشي، ج2، ص 472 .

عقل يتعامل معها بوصفها نصوص بشرية، ولذلك أمكنه أن يرد بعضها، وأن يستغني عن بعضها ويعارض أخرى كما عرضناه سابقا.

ومن جهة ثانية؛ فإن السنة عنده هي ما أثر عن الصحابة والتابعين وأهل المدينة، وهم ممن لا يُعتَرف لهم بالعصمة كما هو الحال بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم، من فتاوى وآثار وأقضية إلى جانب أحاديثه وأفعاله. ما يعني أن مالكا كان يشتغل بعقل يتجاوز منطق التقديس، ويفتح المجال واسعا للعقلانية؛ فالكل عنده في مرتبة واحدة.

والواقع أن البحث عن صيغ تطويع النصوص الإسلامية، وإحالتها إلى نصوص بشرية لم يتوقف منذ أن تعرف المفكر في العالم العربي والإسلامي على التجربة الأوروبية في نقد النص الديني؛ فقد "... خاض طه حسين وعلي عبد الرازق معركة زعزعة النموذج (الإسلام) بإسقاط صفة الأصلية فيه ورده إلى حدود الموروث التاريخي ؛ فيؤكد أن الإنسان يملك موروثه ولا يملكه الموروث. ويملك أن يحيله إلى موضوع البحث العلمي والنظر. كما يملك حق إعادة النظر في ما اكتسب صفة القداسة، وحق طرح الأسئلة والبحث عن أجوبة." [1]

3/ الفردانية... مالك والسنة:

الفردانية والذاتية؛ هي أولوية الذات وانتصارها أو هي «... إدراك الإنسان لنفسه كذات مستقلة؛ ذات هي علامة صاحبها لا تكتفي بأن تعلن عما يميزها عن الطبيعة بل تسعى لترويض هذا العالم»[(2)]. وهي من أهم مقومات الحداثة.

---

[1]/ خالدة سعيد، الملامح الفكرية للحداثة، ص 26، نقلا عن أنس سليمان المصري النابلسي، منطلقات الحداثيين للطعن في مصادر الإسلام، مجلة الراصد، ع89، تاريخ الإدخال: 10 /10/ 2010.
http://www.alrased.net/main/articles.aspx?

[(2)] – فارس أبي صعب، العرب وحتمية الحداثة، مجلة قضايا فكرية، القاهرة، العدد 19–20، أكتوبر 1999، ص59

وقد وجد طرابيشي أن هذا المعنى قد تمت مصادرته في التراث الإسلامي لمصلحة النموذج الأوحد؛ وهو النبي (صلى الله عليه وسلم) والسلف من الصحابة والتابعين. وأن مالكا، بنظرته المتحررة إلى السنة وبتوسعه في مفهومها، قد كسر النموذج الذي يشكل حاجزا يحول بين المرء وبين امتلاك فردانيته، وحقه في صياغة شكل الحياة التي يريدها بما يتلاءم ومعطيات وظروف عصره؛ فالتعاليم التي تتضمنها السنة ما هي إلا صور قديمة ينبغي تحطيمها؛ فالإنسان لم يعد متلقيا للأوامر والنواهي والقوانين الخارجة عنه، بل قطبا آخر يقابل هذه القوى. [1]

3/ العقلانية مالك والسنة:

العقلانية؛ كمقوم حداثي، تعني تأليه العقل وتحرير جميع المعارف من سلطة الدين، والاستغناء عنه لمصلحة العقل. يقول المفكر التونسي عبد المجيد الشرفي: «... هنا لابد من الوقوف عند إحدى لوازم الحداثة الأساسية في الفكر والاقتصاد والسياسة وغيرها ونعني بها العقلانية إذ لا تتصور الحداثة بدون عقلنة هذه الميادين كلها. »[(2)]. والتركيز خاصة على عقلنة الدين التي تعني «... التدخل في جميع مستوياته بدقة لإصلاحه والابتعاد به عن طريق الغطرسة والتسلط»[(3)].

يحاول طرابيشي أن يفند ،استنادا إلى ما يذكره أبو زهرة، ما يذهب إليه أحمد أمين من أن الإمام مالك هو إمام الحديث وأن أبا حنيفة هو إمام الرأي؛ فيورد قول أبي زهرة: " إذا كان لزعامة الرأي أن تنسب إلى أحد فإنما إلى مالك بن أنس، وإن ليس حصرا ففي الدرجة الأولى." [4] ثم يذكر أن الشافعي كان يتوجه إلى الإمام مالك أكثر مما يتوجه إلى

---

[1]/ أنظر: المرجع السابق، ص 29-31.

[(2)] – عبد المجيد الشرفي، الإسلام والحداثة، مرجع سابق، ص23

[(3)] – فتحي التريكي ورشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، دط، بيروت، مركز الإنماء القومي، 1992، ص 31

[4]/ جورج طرابيشي، من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث...، مصدر سابق، ص 125.

أبي حنيفة في رده على مدرسة الرأي. وتلك، برأيه، قرينة تدل على زعامة مالك للرأي. ثم يذكر أن ابن قتيبة يضع جنبا إلى جنب مالك وأبي حنيفة. ثم إنه تتلمذ على يد شيوخ الرأي، وعلى رأسهم ربيعة بن أبي عبد الرحمن الذي كان يلقب بربيعة الرأي. ثم إن مالك، كما يرى طرابيشي، يعد أول وأكثر من استعمل في الثقافة الإسلامية عبارة: "هذا رأيي."[1] وهو ما يؤكد عقلانية الإمام مالك ، كما يبدو ذلك عند طرابيشي.[2]

غير أن العقلانية التي تصدر عن مالك، كما يرى طرابيشي، هي العقلانية النصية؛ وهي "... التي تقدم تعقل النصوص على تعقل الواقع، وارتهان الثاني للأول." [3] والعقل النصي؛ حسبه، يشتغل بطريقين: عقل يتعقل النص وعقل يعقلن النص. فهناك العقل المتعقلla raison raisonnante والعقل المعقلن la raison rationalisante.[4] فإلى أيهما تنتمي عقلانية مالك بحسب تحليل طرابيشي؟

إنه بالنظر إلى محورية النص في الحضارة الإسلامية، ومكانته المقدسة؛ فإن العقل فيها سيكتفي بعقلنة النص. والعقلنة أو la rationalisation يعرفها طرابيشي بأنها:"... سيرورة منطقية ونفسية معا. ومن طبيعة مرضية تدعي نصاب المعقولية المسبقة واللامشروطة لكل ما يصدر عن الذات من عمل أو فكر."[5] وهذا التعريف يحاول أن يسقطه على النص في السياق الإسلامي؛ حيث النص يقوم مقام الذات؛ فيقول:" ... وبالنظر إلى أن ما يقوم للحضارة الإسلامية مقام الذات هو النص بما هو؛

---

[1]/ أنظر: جورج طرابيشي، من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث، مصدر سابق، ص 125-127

[2]/ على أن الأمانة تقتضي القول أن كل تلك الأدلة وغيرها مما يذكره طرابيشي هي منقولة من كتاب محمد أبي زهرة: مالك حياته... وقد شكل، برأيي، المصدر الأساس لقراءته للسنة عند مالك. ورغم ذلك هو لم يشر إلى ذلك إلا في موضع واحد من الكتاب؛ أي في ص125

[3]/ جورج طرابيشي، من إسلام القرآن ...مصدر سابق، ص111

[4]/ المصدر نفسه، ص 111

[5]/ المصدر نفسه، ص112

فلنقل إن العقلنة تعني في هذه الحالة إعطاء شهادة معقولية مسبقة ومطلقة للنص واعتباره ينطق بحقيقة غير قابلة للازدواج أو للتناقض وتكون كل مهمة العقل المعقلِن بالتالي أن يبرئ النص من عيوبه المحتملة وأن يسد نواقصه ويملأ فراغاته وأن يسوي تضاريسه ويرد مختلفه إلى مؤتلفه وأن يحذف تناقضاته أو يصهرها في نار العسف التأويلي بحيث يصح الصحيح وينعدم الخطأ وينتفي احتمال التناقض لأن النص بحكم مصدره الإلهي أو المقدس."[1]

تلك إذن هي عقلانية مالك، كما تبدو لطرابيشي، هي تقترب من أن تكون حالة مرضية تدعي أنها على حق دائما، ومن ثمة كانت عقلانيته، هي في الواقع، عقلنة وظيفتها إزالة التناقض وملء الفراغات وتسوية التضاريس وغيرها...لأن الرجل لا يريد أن يقع في مغالطة تاريخية فاضحة؛ تنسب مالك بن أنس إلى غير عصره وإلى غير نصابه الإبستيمولوجي."[2] ومعنى ذلك أنها ليست هي العقلانية التي يمكن المراهنة عليها في مجاوزة النص أو نقده أو إعادة قراءته بالمعنى الحديث، " ... كل ما هنالك أن مالكا، خلافا لمن سيأتي بعده ممن سيسعى وبأي ثمن وبواسطة العقلنة إلى إغلاق الدوائر، لم يستبعد احتمال وجود تناقض في النصوص سواء كانت أحديث نبوية أو آثارا صحابية[...] وطبيعي أن إبقاء باب التناقض في النصوص مفتوحا يمثل في حد ذاته هامشا من الحرية في التعاطي معها." [3]

هكذا، إذن، أفصحت قراءة طرابيشي للسنة عند الإمام مالك عن مفكر استطاع أن يحدث خرقا في مفهومه للسنة؛ حيث كشف بشرية نصوصها وتاريخيتها، ورفع عنها هالة التقديس؛ فتمكن من خلق حالة من الحرية النقدية والفردانية والممارسة

[1]/ المصدر نفسه، ص 112
[2]/ المصدر السابق، ص112.
[3]/ المصدر السابق، ص 112

العقلانية، وإن كانت ليست هي العقلانية التي يمكن المراهنة عليها في إحداث تطور ما في النظرة إلى التراث.

رابعا: رؤية نقدية:

يتحرك طرابيشي في قراءته للتراث على إيقاع الحداثة بحثا عن مقوماتها وشرائطها؛ بغرض تأمين عبور محترم نحوها؛ ما يعني أنه يروم إثبات ذلك ولو على حساب الظاهر والمؤول في التراث الإسلامي. ولذلك نجده يفضل المنهج الانتقائي، والعسف في التأويل حتى يُقَوِّل التراث ما لا يقول. وهذا النوع من الطرح بات سمة الحداثيين في العالم العربي، وميزة تميز العقل الحداثي؛ فهو عقل يرفض المناقشة، ويأبى أن تكون أفكاره بخصوص قراءة التراث محل انتقاد، ولا يبدو أنه معني بمحاورة التراث أو محاولة فهمه؛ بقدر ما يبدو أنه يريد أن يهدمه؛ فالحداثة تسعى إلى عقلنة الدين؛ أي «... التدخل في جميع مستوياته بدقة لإصلاحه والابتعاد به عن طريق الغطرسة والتسلط»[1].

ثم إن أغلب قراءاتهم هي في واقع الأمر صادرة عن غير متخصصين؛ ولذلك فإن آراء طرابيشي هنا مردود عليها عند أهل الاختصاص من الأصوليين والمفسرين والفقهاء. ولنبدأ بمقالته حول الحرية النقدية.

الحرية النقدية: إن ما يراه طرابيشي في ميراث مالك حرية نقدية لا يستقيم، وعلى النقيض من ذلك تماما هو يكشف امتلاك الرجل ناصية فنه واختصاصه من جهة. وامتلاكه لنظرة متوازنة تزاوج بين الدين والحاجات الفطرية، وبين الدين والإكراهات الواقعية وبين الدين والمعطيات العقلية، يدل على ذلك كثرة أصوله وقواعده التي " ... تطلق المخرج فإنه بلا شك كلما كثر ما بين يدي المفتي من أصول صالحة للإفتاء

[1] – فتحي التريكي ورشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، دط، بيروت، مركز الإنماء القومي، 1992، ص 31

يختار منها أصلحها وأقربها إلى العدل والدين فيما يفتي."[1] وهو ما جعل مذهبه "... أكثر مرونة وأقرب حيوية وأدنى إلى مصالح الناس وما يحسون وما يشعرون، وبعبارة جامعة أقرب إلى فطر الإنسانية التي يشترك فيها الناس."[2] فليست الحرية، كما فهمها طرابيشي عند مالك، هي في مجاوزة السنة بقدر؛ ما هي احترام للإنسان الذي بات اليوم يبحث عن فكر يحتمي به ويراعي مصالحه الحقيقية وحاجاته الفطرية.

ثم إن جل ما ساقه كأدلة على حرية نقدية هي متهافتة ومردود عليها عند أهل الاختصاص؛ فقوله إن مالكا كان يعلق الأحكام؛ مردود لأنه لم يكن يعلقها ولم يكن يتوقف؛ إنما يصدر فتاوى تقوم، كما سبقت الإشارة إليه، على الجمع والترجيح وغير ذلك...كما هو الحال مثلا في ما أورده مالك في باب التشديد في المرور بين يدي المصلي والرخصة في المرور بين يدي المصلي التي يستدل بها طرابيشي؛ فالأول جاء فيه قوله عليه الصلاة والسلام: (إذا كان أحدكم يصلي فلا يدع أحدا يمر بين يديه وليدرأه ما استطاع...) والثاني عن ابن عباس قال: (أقبلت راكبا على أتان، وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام ورسول الله يصلي للناس بمنى. فمررت بيدي بعض الصف. فنزلت فدخلت في الصف فلم ينكر ذلك علي أحد.)[3] ليخرج مالك بالجمع بين الحديثين بالقول: " وأنا أرى ذلك واسعا إذا أقيمت الصلاة وبعد أن يحرم الإمام ولم يجد المرء مدخلا إلى المسجد إلا بين الصفوف.[4]

---

[1]/ محمد أبو زهرة، مالك حياته... مرجع سابق، ص 418.

[2]/ المرجع نفسه، ص418.

[3]/محمد ابن عبد البر النمري ، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، دط، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، 1967، ج9، ص19

[4]/ مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، 1985، باب: الرخصة في المرور بين يدي المصلي، ج1، ص156.

وأما ما يراه كشفا للتناقض بين الأحاديث؛ فهو مما يعرف عند أهل الاختصاص بالتعارض بين ظواهر النصوص. والتي تعالج في غالب الأحيان بتخريجات لا تعارض مقاصد القرآن وروح التشريع ومعطيات العقل والمصالح، وهذا يكثر عند مالك وغيره. وبهذا الشكل وجدنا مالكا يرفع تعارض الحديثين اللذين ساقهما بخصوص استدبار القبلة واستقبالها عند قضاء الحاجة؛ أنه كان القوم عربا وعامة مذاهبهم في الصحاري؛ وكان الذاهب إلى حاجته إذا استقبل القبلة أو استدبرها استقبل المصلي بفرجه أو استدبره ولم يكن عليهم ضرورة في أن يشرقوا أو يغربوا فأمروا بذلك. وكانت البيوت مخالفة للصحراء؛ فإذا كان بين أظهرها كان من فيه مستترا. فلما ذكر ابن عمر ما رأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم من استقباله بيت المقدس، وهو حينئذ مستدبر الكعبة دل على أنه إنما نهى عن استقبال الكعبة واستدبارها في الصحراء دون المنازل.[1]

العقلانية: العقلانية التي تصدر عنها قراءة وفهم مالك للسنة غير تلك التي يريدها له طرابيشي؛ إذ إن عقلانية مالك تكمن في قراءته المرنة للوحي وفي انفتاحه على مصادر متنوعة كالقياس والمصلحة والاستحسان والاستصحاب وشرع من قبلنا وغيرها... والتي تعكس انفتاحا كبيرا وقدرة على تجاوز منطق احتكار المعرفة الدينية، وانفتاح على الزمان والمكان والوقائع والأشخاص والأفكار.

فعقلانية الإمام مالك، إذن، تصدر من مفهوم العقل في القرآن الكريم؛ أي العقل المسيج بالنص والمعني بخدمته لمصلحة العباد وتحصيل سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة؛ إذ العقل المجرد من سياج الوحي هو محض جهل. يقول ابن تيمية: "... العقل الصريح إنما يوافق ما أثبته الرسول صلى الله عليه وسلم. وليس بين المعقول

[1]/ المرجع نفسه، ص 156.

المعقول الصريح والمنقول الصحيح تناقض أصلا[...] وإنما المعقول المخالف لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو جهل وضلال."[1] والنص إذا أخبر عن شيء وقامت دلائل العقل وبراهينه على إثباته فتلك دلالة شرعية عقلية"... فهي شرعية لأن الشرع دل عليها وأرشد إليها. وعقلية لأنها تُعْلم صحتها بالعقل. ولا يقال إنها لم تعلم إلا بمجرد الخبر. وإذا أخبر الله بالشيء ودل عليه بالدلالات العقلية صار مدلولا عليه بالخبر ومدلولا عليه بدليله العقلي الذي يعلم به فيصير ثابتا بالسمع والعقل. وكلاهما داخل في دلالة القرآن التي تسمى الدلالة الشرعية."[2]

إن عقلانية الإمام مالك، والحال هذه، هي عقلانية تدين للوحي ولا تتنكر له وتستمد قوتها وصوابيتها ووسطيتها منه، وهي التي أنتجت"... التنوع في الأصول والمصادر وزاوجت بين العقل والنقل والأثر والنظر وعدم الجمود على النقل أو الانسياق وراء العقل."[3] وهي التي "...تقبل مفاهيم المخالفة والموافقة وتنبيه الخطاب كما تقبل دلالة السياق ودلالة الاقتران والدلالة التبعية وغير ذلك..."[4] ولا مجال لتحميل الإمام مالك القول بعقلانية تنتهك النص بداعي الحداثة، كما يريدها جورج طرابيشي.

الفردانية: أراد طرابيشي بقراءته المتعسفة للسنة عند مالك أن يقول أن الرجل بصنيعه المتمثل في (نقد) السنة قد أسس لفكرة الفردانية أو الذاتية، كمقوم للحداثة،

---

[1]/ أحمد ابن عبد الحليم ابن تيمية، مجموع الرسائل والمسائل، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992، ج1، ص206.

[2]/ المصدر نفسه، ج2، ص 196.

[3]/ خصائص المذهب المالكي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2012/2/3
http://www.habous.gov.ma/2012-01-26-16-

[4]/ المرجع نفسه.

يتنكر للجماعة. وهو أمر ترفضه سيرة مالك وتمسكه بالنبي صلى الله عليه وبالسلف الصالح للأمة. وقد أثر عن الإمام مالك الكثير من الأقوال والآثار في اتباع السلف وضرورة الاقتداء بهم، منها ما نقله إسحاق بن إبراهيم الحنيني وذكره الشاطبي قوله:[قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تم هذا الأمر واستكمل؛ فإنما ينبغي أن نتبع لآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه.][1]ما يعني اعتراف قوي بالقدوة وتفعيل دورها؛ عن طريق الاحتفاظ بمكانة السلف من الصحابة والتابعين في الاقتداء والاتباع؛ ذلك أن تغييب القدوة يعني تغييب للنماذج الإيجابية في التاريخ والحضارات الإنسانية، وهو ما تحرص عليه الأمم الحية في الوقت الذي يراد للمجتمعات الإسلامية أن تتنكر أو ترفض نماذجها الإيجابية بدعوى الانتصار لما يسمونها قيما حداثية أثبت الفكر المابعد-حداثي تهافتها وعدم جدواها.

التاريخية: لقد (كشف) طرابيشي في قراءته للسنة عند الإمام مالك، أن القرآن الكريم قد صرح في غير موضع أن النبي صلى الله عليه وسلم هو بشر مكلف بالتبليغ ونقل الرسالة لا غير. وأن الإمام مالك كان أكثر مَن فهم هذا الموضوع؛ دل على ذلك توسعه في مفهوم السنة؛ بحيث يختلط فيها فتاوى وأقضية وأقوال الصحابة والتابعين وأهل المدينة بأقواله وأفعاله عليه الصلاة والسلام. كما يدل عليه رده السنة وتحكيم آرائه بدلا عنها، وما إلى ذلك مما ذكرناه.

غير أن ما يراه طرابيشي إقرارا واعترافا بتاريخية السنة؛ هو في واقع الأمر دليل جلي على انفتاح الإمام على كل المكونات التي يرى أنها قريبة من منبع النبوة، وأنها في الوقت نفسه لا تشكل خرقا لمعنى وشرف وقداسة النبوة والرسالة، وهؤلاء هم

[1]/ أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام ، دط، ضبط نصه وقدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه: مشهور بن حسن آل سلمان، دن م، ن، مكتبة التوحيد، دت، ج1، ص105.

الصحابة الذين زكاهم القرآن نفسه. وقد نقل الإمام الآجري عن الحسن البصري أنه قال:[أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا؛ قوم اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه وإقامة دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فإنهم كانوا ورب الكعبة على الهدى المستقيم.][1] كما يمكن أن ننظر إلى رمزيته؛ فنفهم منه إطلاق لفاعلية الإنسان واعتراف بخبرته؛ التي تعني"... حركة الإنسان في صناعة التاريخ."[2] وهو من ثمة يشي بنوع من الانفتاح على التعددية في صناعة المعنى وعدم احتكاره.

وهكذا يمكن أن نقول أن نظرة الإمام مالك للسنة؛ تستبطن إمكانات تحويلية على المستوى العقلي والسلوكي، غير أن ذلك لا يعني أن إمام السنة قد تغيأ، بتلك النظرة، أن يدنس السنة ليجعل من تدنيسها سلما يعرج عبره المسلمون إلى عالم الحداثة.

الخاتمة:

نخلص بعد هذا العرض، إلى جملة من النتائج نذكرها في النقاط التالية:

1/ إن محاولة قراءة طرابيشي للسنة؛ هي جزء من مشروع فكري يقع التعويل عليه في تثوير وتطوير العقل العربي عند أغلب المفكرين الحداثيين في العالم العربي.

2/ إن توجه طرابيشي نحو قراءة السنة مرده إلى ما يعتقد هيمنتها على الفكر الإسلامي ومجاوزة تأثير نصوصها نصوص القرآن من خلال ما وقع لها من تضخيم أفضى إلى ما يعتبره انغلاقا للعقل الإسلامي.

3/ إن استراتيجية طرابيشي في قراءة السنة تقوم على القراءة من الداخل، وضمن

---

[1]/ الآجري، كتاب الشريعة، دط، د.م.ن، ص530، رقم الأثر 1686.

[2]/ مالك بن نبي، تأملات، ط1، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1979، ص129.

هذا المنظور توجه إلى قراءتها عند واحد من أئمتها وهو الإمام مالك.

4/ إن مالكا هو إمام الرأي كما هو إمام الحديث، بالنظر إلى كثرة مصادره العقلية المحتمية بالنص؛ كالقياس والمصلحة والاستحسان والاستصحاب وغيرها... وبالاستناد إلى فتاواه وآرائه التي يظهر فيها تقديم المعطى العقلي ومصالح الناس على خبر الآحاد.

5/ إن الإمام مالك، في قراءة طرابيشي وبناء على ما سبق، هو أبرز من فهم السنة بالمعنى الذي يكشف مجاوزتها القرآن ويهدم الطوق الذي ضربته حول العقل. ومن ثمة فالسنة عند مالك، كما يخلص إليه طرابيشي، تقدم للفكر العربي المقومات والشرائط الضرورية لتكوين عقل عربي حداثي.

6/ إن قراءة طرابيشي للسنة عند مالك وما خلص إليه كشفت قصور العقل الحداثي العربي عن إحداث أو خلق فكر حداثي عربي يراعي الأبعاد الحضارية للمجتمعات العربية والإسلامية ولا يتنكر لهويتها الدينية خاصة.

7/ ومن ثمة كانت قراءته للسنة، بنظري، ليست معنية بتكوين عقل حداثي بقدر ما ركزت على تهديم جزء كبير من الهوية الدينية التي تشكل السنة النبوية جزء كبيرا منها.

قائمة المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم**
- **1/ الكتب:**

- طرابيشي جورج، نقد نقد العقل العربي: إشكاليات العقل العربي، ط1، بيروت، دار الساقي، 1998.

- طرابيشي جورج ، من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث- النشأة المستأنفة-، ط1، بيروت، دار الساقي، ورابطة العقلانيين العرب، 2010.

- الآجري، كتاب الشريعة، دط، د.م.ن.

- أركون محمد، الفكر الإسلامي: نقد واجتهاد، ترجمة:هاشم صالح، ط3، بيروت، دار الساقي، 1998.

- ابن العربي، القبس، شرح موطّأ مالك بن أنس، تحقيق محمد عبد الله ولد كريم، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1992، ج2.

- القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ط2، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1983،ج1.

- التريكي فتحي ورشيدة ، فلسفة الحداثة، دط، بيروت، مركز الإنماء القومي، 1992

ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم ، مجموع الرسائل والمسائل، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992، ج1.

- أبو زهرة محمد ، مالك: حياته وعصره –آراؤه وفقهه، دط، القاهرة، مطبعة الاعتماد، دت

- السبكي تاج الدين بن علي ، جمع الجوامع في أصول الفقه، ط2، علق عليه ووضع حواشيه: عبد المنعم خليل إبراهيم، بيروت، دار الكتب العلمية، 2002.

- الشاطبي أبو إسحاق ، الاعتصام، دط، ضبط نصه وقدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه: مشهور بن حسن آل سلمان، دن م، ن، مكتبة التوحيد، دت، ج2.

- الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، دط، تحقيق: عبد الله دراز، د، م، ن، دت،

- الشرفي عبد المجيد ، الإسلام والحداثة، ط3، تونس، دار الجنوب، 1998.

- أبو طه أنور ، الحداثة وأزمة مؤسسات التعليم، ضمن كتاب: خطاب التجديد الإسلامي: الأزمنة والأسئلة، ط1، دمشق، دار الفكر، 2004

- علي عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، دط، بيروت، دار الكتاب اللبناني، القاهرة دار الكتاب المصري، 2012.

- الغزالي أبو حامد، المستصفى من علم الأصول، دراسة وتحقيق: حمزة بن زهير حافظ، دط، المملكة السعودية، شركة المدينة المنورة للطباعة،دت،ج2.

- القرافي أحمد بن إدريس، الفروق، ط1، قدم له وحققه وعلق عليه: عمر حسن القيام، بيروت، مؤسسة الرسالة، 2003، ج 1.

- القرافي، شرح تنقيح الفصول، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ط1، دار الفكر، 1393هـ/1973م

- مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، 1985،ج1.

- بن نبي مالك ، تأملات، ط1، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1979.

- النسائي، السنن، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، ط1، القاهرة، مؤسسة الرسالة، 2001، ج3.

- الهروي، شرح الشفا، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1421هـ، ج2.

- **المجلات:**

بلعقروز عبد الرزاق، مساءلة النقدية لأنماط العقلانية لدى أركون والجابري- نموذج طه عبد الرحمن- مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة سطيف2، ع16، ديسمبر2012.

- أبي صعب فارس ، العرب وحتمية الحداثة، مجلة قضايا فكرية، القاهرة، العدد 19-20،

أكتوبر ,1999

3/ المواقع الإلكترونية:

http://www.habous.gov.ma/2012-01-26-

http://www.arabphilosophers.com/Arabic/aphilosophers/ -

http://www.aljazet/ntureandart/2016/11/21

https://aawsat.com/home/article/

http://www.atheer.om/archives/26704

http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid

https://www.goodreads.com/author/show/2967319

http://www.alrased.net/main/articles.aspx?